

موضعنا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز في نواحي المجلس باهتزاز العنصر الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقص بنا سروراً بأهله وعزة بمقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من غنائهم مجرداً عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعتهم في وضع النغمات ، لأنني لو أخذت في ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة<sup>(١)</sup> . وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية

## الرسالة السابعة

### في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاورة فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين ، ومرأوة رؤاة ، ونوب مغنين .<sup>(٢)</sup> وذلك من الحظوظ التي لا يتفق مثلها لميرى من المتصلين بالملوك ، لأنني كنت أقرب الناس مكاناً إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحظوة لديه بحيث

(١) راجع كتاب الأغاني ان شئت فيها مطولا (٢) واحدها نوبة وقد

ذكرها الاغانى ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب

إذا جلست إلى منادته عدل عن جلال موضعه من الخلقة ورجع إلى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الأخوان ، فكان يمسد إلى نخدة<sup>(١)</sup> يجعلها تحت فخذة ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلمَّ بحديثك<sup>(٢)</sup> ، وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت بجلسه دون أحد من المقرين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكللاتٍ بالأزهار<sup>(٣)</sup> مزينات باللؤلؤ والزبرجد<sup>(٤)</sup> وأفخر أنواع الجوهر فينزين ويضربن بالملاهي إلى هُدء من الليل ، فاذا أتاه من الحرم<sup>(٥)</sup> التفاح<sup>(٦)</sup> المنقوش المطيب<sup>(٧)</sup> وغيره من الفاكة وأنواع الحلوى عزم على أن أجلس إلى طعامه<sup>(٨)</sup> ، وكان يجب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيراً وصلاً ، وينعم فيها العلم روحاً واسترواحاً . حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل أملمهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياع العامرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بمد أن رأى جعفرًا وزيره يتتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة

(١) الاغانى ٥ : ١٢٢ (٢) الاتلیدی ١١١ (٣) الاغانى ٧ : ٣٦

(٤) الاغانى ٤ : ٦٢ (٥) المسعودی ٢ : ٥٦ (٦) وجدت في بعض الكتب

أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكة لأنه اجتمع فيه يياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين يبهجه والانف يريحه والقم بطعمه . العقد الفريد

٣٧٥ : ٣ (٧) الاغانى ١١ : ٣٥ (٨) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠

بتعريبه<sup>(١)</sup> ثم يعطيهم زنة الكتاب المرّب ذهباً ، ( لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة<sup>(٢)</sup> ) ( أعزم الله ) وهم الذين استنهمضوا همم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم ، وقد رأوا الرقوق التي تستعمل في الصُّكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغد<sup>(٣)</sup> ذريعة إلى نشر العلم الذي عُنُوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلاً إلى انتفاع الأمة به إلا سلكوه ، وقد أعقبهم هذا المسلك فخراً تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأُحدوثه فحسدهم الرشيد على ذلك ، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتبي السالفة إليك ، فأنفذ رسله في إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بإشخاص التراجم الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمها العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهروا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ،<sup>(٤)</sup> فرقوا من الأدب المقام الذي لم ترقه أمة قبلهم في المشرق . وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب<sup>(٥)</sup> ونبل المهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان ، فانا لا نجد في أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عندما صار الأمر إلى بني أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا

(٢) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه

(١) ابن خلكان ١ : ٢٣٦

(٣) المقدمة ٣٦٨ (٤) راجع المقدمة وكتاب حاجي خليفة (٥) المسعودي ١ : ٢٣٦

الأعاجم سلطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدينة ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفتانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحاً<sup>(١)</sup> أصابوا الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل ،<sup>(٢)</sup> وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر<sup>(٣)</sup> لأنه كان يعزّز جانب الحكمة ويبحث عن مكان العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتابة أن يدوتوا الأسفار الكثيرة لاداعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفاً عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعه الله تعالى في صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة وجهوا همهم إلى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا في جميع فروع وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة

• (١) حاجي خليفة ٣ : ٩٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٢٦٣ (٣) السيوطي

عهدٍ بالمران ما وُجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب .  
وإني أذكر أن الرشيد لما ركب إلى الرقة في بعض أسفاره حمل معه ثمانية  
عشر صندوقاً من أسفارهم<sup>(١)</sup> ليقطع بمطالعها زمانه مع أنه لم يأخذ منها الا  
نخبة مما في خزائنه وقد وجدت في قصره بناه بالقاطوا، ليخرج إليه  
للتزهِه<sup>(٢)</sup> خزانة كتب تحوى على أكثر من ألف كتاب . وحسبنا  
ذلك شاهداً على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التي دونها العرب بين  
تعريب وتصنيف .

## الطب والاطباء

كان أبو جعفر ( غفر الله له ) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم  
فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوض أمرها إلى طيب أعجمي يقال له « فرات  
ابن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق<sup>(٣)</sup> الذي كان طبيباً بدار الحجاج أمير  
العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى<sup>(٤)</sup> دون المسلمين ولست أحسب  
السبب في إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المجرّبات  
التي توارثوها من مشيخة الحى وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في  
كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها ثقة . وذلك خطأ عليهم شينه  
وخسرانه ، إذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب أسندت إلى أطباء  
النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعربوا كتب جالينوس وأبقراط من  
حكاء اليونان وأضافوا إليها كثيراً مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم

(١) الأغاني ٥ : ٦٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) في الأغاني ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين

على مقالات ارسينخاس<sup>(١)</sup> وديمقراطيس<sup>(٢)</sup> وغيرهما من العلماء الذين يرجع إلى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مظهر الطب في النصرانية رجل<sup>٣</sup> يقال له ماسوييه أبو حنا وكان أمياً لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المرانة له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فخرّجا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه في شفاء الأمراض .

فأما يوحنا فإنه صار طبيباً بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في معالجة أهل السقام، واتخذ مجلساً أفرده للنظر في استنباط طرق العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء، وكان الرشيد قد ولّاه ترجمة الكتب<sup>(٤)</sup> التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مشقة عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عربت في خلافة المهدي وأبي جعفر فإنها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها، إذ كانت عارية من القواعد التي وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة، فلم يجد الترجمة في تعريبها عناء يُجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسه .

وأما جبريل بن بختيشوع فإنه تبخر في جميع العلوم الداخلة في علم

(١) المسعودى ١: ٩٢ (٢) حاجى خليفة ٣: ١٢١ (٣) أبو الفرج ٦٣٧

الطب ، وكتبَ في حياة الحيوان رسائل<sup>(١)</sup> تدلّ على سعة إطلاعه ، وكان جعفر<sup>(٢)</sup> (أعزه الله) شديدَ الحب له والاحتفاظ به حرصاً على ما وسع صدره من العلوم ، فقرّبه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذَه في دور الخلافة بدل صالح الهندي الذي كان مقدّمًا<sup>(٣)</sup> من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يُشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجّالين ، وهم الشيوخ الذين بعُدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الحرف منهم فيزعمون أنهم يطبّون الناس بالمواعظ<sup>(٤)</sup> ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفّق بعلمه إلى بلوغ الناية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تميمت الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة « ثانية من الأطباء كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أبا قريش الصيّد لانيّ ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رُزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشر الخيزران في خلافة أبي جعفر بأنها تحمل مولوداً ذكراً يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاماً أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً في دار الخلافة ،<sup>(٥)</sup> وقد سمعتُ من يقول إن الخيزران إنما قربته لمهارته في الحِجامة لافي الطب ، فان صحت الرواية كان عندي أحقّ بالثقة فيه حجاً من الثقة به طبيباً ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، أما وسائل العلاج التي يزعمون أنها تُبعد العلة عن العليل بعد تمكّنها منه

(١) حاجي خليفة ٤ : ١٢٥ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ (٣) أبو الفرج ٢٣٨

(٤) المسعودي ٢ : ٥٨ (٥) أبو الفرج ٢٩

فأنا من الثقة بها على شيء، لأنني أحسبها من باب الفوص على أسرار الطبيعة، وطالما وجدت للطباء في العلة الواحدة آراءً متباينة، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلا وجه واحد. أما الحجة فأنها على خلاف ذلك، والرأي فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله، وإني وإن كنت على بُعد من الطب لا أجد بدءاً من الاقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، ولا غرو فان للطب صناعة لا تُبلَّغ الغاية منها إلا على طول التجربة والاختبار في المراتة والممارسة، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة، وقد قال علي عليه السلام<sup>(١)</sup>

ألا لن تنال العلم الا بسة      سأ نبيك عن مجموعها بيان  
ذكا وحرص واصطبار وبلغة      وارشاد أستاذ وطول زمان

### النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الاماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة قديماً عند العرب، غير أن الاجتهاد فيها كان محصوراً في نفر قليل من أتباع الأقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام، فلما جاء أبو جعفر قرَّب إليه النجمين وقدم عليهم نوْبَخْت<sup>(٢)</sup> النجم المشهور عندنا بين أعظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجي ١٠٢ (٢) ذكره القزويني وابن الاثير

وغيرهما في استشارة أبي جعفر اياه في بناء الزوراء

كثير من الناس ، إلا أنه لم يخلفه في علمه كالموصلي المنجم ، فإنه كتب في الأسطرلاب سفراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصواتاً يُميرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجمون إليها في علم النجامة والأفلاك ثم نجم بعده في المسلمين علي بن عيسى الأسطرلابي<sup>(١)</sup> وإبراهيم الفزاري المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت في خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم<sup>(٢)</sup> فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلاً<sup>(٣)</sup> ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخاً ، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخاً .<sup>(٤)</sup> ثم نبغ بعدهما توفيل بن توما الرهاوي<sup>(٥)</sup> وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون في مصر الخالية إلى السريانية بنهاية ما يكون من الفصاحة ،<sup>(٦)</sup> وأميروس هذا شاعر مُجيد

(١) المسعودي ٢ : ٤٠٠ (٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠ (٣) المسعودي

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجماً من الروم يقال له توفيل الرومي وأنه كان

في أيام بني أمية (٥) أبو الفرج ٢٢٨ (٦) المقدمة ٥٣١

كان يفترف المعانى من بحار التصوّر ويُبْرِزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء ، فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفاً لا يسمو إلى متناوله إلاّ العقولُ النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو<sup>(١)</sup> في كتابه بمدح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهودي وأحمد بن محمد النهاوندى ، ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى<sup>(٢)</sup> النجم . فاما ماشاء الله فيقال إن له حظاً في علم الغيب ،<sup>(٣)</sup> وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نوبخت وكسبوا الانعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فانه في الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتاباً سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جنديسابور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودون في الموازنة بين علوم القرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتاباً آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أمانها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبع ست جسات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض ،<sup>(٤)</sup> وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

(١) الأغانى ١٥ : ٨١ (٢) أبو الفرج ٢٤٨ (٣) ذكرها المسعودي

وقد أهداني هذا المنجم نسخة مصوّرة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج إليه من المراجعة والاصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذي يباشر رصده في هذا الوقت .

ولقد مضى في كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول في هذا الباب إنّ الفُرس برعوا في النجامة على العرب ، لأنني رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويمدّونها هي والسحر<sup>(١)</sup> الذي ينهى الشرع عنه علماً واحداً ، بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم إلى العلا في مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما يُنبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرّب لهم في الاسلام أبو جعفر المنصور<sup>(٢)</sup> كما ذكرت ذلك في مواضع من الكتاب لأجل أن يُطلموه على طواريّ الجو وحدث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها وينبثوه عن جذب الأرض وخصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك ، ثم قرّبهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الاضطراب<sup>(٣)</sup> في جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا في النجوم ويُدركوا علم الأبعاد ويوقّعوا زمن الكسوف<sup>(٤)</sup> وعقدوا لهم مجلساً يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات

(١) القناوى ١٠ (٢) السيوطى (٣) ذكر صاحب الأغاني والالتىدى

أن جعفرًا استشار الاضطراب يوم نكبه الرشيد (٤) العقد الفريد ٢ : ٧٨٥

الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من  
الأفلاك التي تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى مَنْ له علمٌ  
بالنجماء أن يُعَرِّب كتاب المجسطى لبطليموس من حكام يونان وأنخذوا آلة  
للرصد تعرف بذات الحلق ،<sup>(١)</sup> فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة  
من أدياء العرب الذين لم يشاركونا في هذا العلم إلا بما يلتمسون من معرفة  
الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذي  
يسمونه بعلم الأزياج<sup>(٢)</sup>

### الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب  
فيه في صدر الاسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من  
التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه في الصحف ، فلما أسرع  
الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخاً فزِع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا  
يدونون<sup>(٣)</sup> الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظاً بطريق الاسناد  
ولكن من غير أن ينظروا في الرواية النظرَ الجليَّ ولا أن يعتمدوا في النقد  
الأصلَ المرعى . فكتب ابن جريج بمكة ،<sup>(٤)</sup> ومالك بن أنس بالمدينة ،  
ومعمر باليمن ، وسفيان الثوري بالكوفة ، وهشيم بن بشير<sup>(٥)</sup> بالعراق ،

(١) وقال ان المأمون أول من اتخذها في الاسلام وانها كانت معروفة عند

اليونان كما يستدل على ذلك من العقد الفريد (٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجي خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقاني ٥١ : ١٠ (٤) الزرقاني ١ : ١٠ (٥) ابن خلكان ١ : ٥٢

والاغاني ٥ : ٥٤

والأوزاعي ببيروت<sup>(١)</sup> من ساحل الشام ، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبي عروبة بالبصرة ، وذلك كله في خلافة أبي جعفر<sup>(٢)</sup> رحمه الله . وكان أصحابهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكُ ابنُ أنس وهو رأس المحدثين ،<sup>(٣)</sup> رأيتُه إذا أراد أن يحدث توضأً وجلس على صدر فراشه وسرَّحَ لحيته وتمكَّن في جلوسه بوقارٍ وهيبةٍ ثم حدث ، فقلت له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستمعلاً ، ويقول أحبُّ أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطعمون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف ، وكان من عليَّة أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين بأغلاطهم<sup>(٤)</sup> ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب ،<sup>(٥)</sup> ثم أخذ أخذَه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو اسحق الفزاري وعبد الله بن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيماننا

(١) حاجي خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٢) السيوطي (٣) ابن خلكان ١ : ٦٢٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٢٧٦

(٥) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و ٢١٣

هذه، والرشيده لا يسمع الحديث إلا عنهما. ولا يلتبس الرد على الزنادقة إلا منهما. فكان إذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدودَ أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به؟ فيقول لهم وأين أتم يا أعداء الله من أبي اسحق وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً<sup>(١)</sup>

ولقد أخبرني هذان الامامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائلَ يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربيّ الفصيح من الكلام، وهذان المذهبان<sup>(٢)</sup> فاشيان اليوم بين الناس، والأول منهما أشد خطراً على الاسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدعاة بما يُعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجارتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظاً استعملوها في أشمارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح، فما ورد في القرآن من الألفاظ الأعجمية إما دخل في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق<sup>(٣)</sup> بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد في شعر البلغاء من الجاهليين، وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفتريين فيما يزعمون. أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قائمة لافترائهم على الله مخددة لنار الفتنة التي كمنت طي مذهبهم، وهذا من الأمور التي ينبغي أن ينظر فيها الأوثياء بعين الحذر، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين، ويكون

(١) السيوطي (٢) الديميري ١ : ٩٨ والكشكول والاتفان ١ : ٦٨ أو

ابن الاثير والاتفان ١ : ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان في تفسير القرآن ١ : ١٤٩

آخر أمرها بواراً على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البلدان  
وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوة الاسلام .

ولقد عثرت في مدونات الفقه على كتب جليلة أجلها كتاب لأبي  
حنيفة في الكلام<sup>(١)</sup> اسمه الفقه الأكبر، وله في هذا العلم الشأب الذي  
لا يدرك، وكتاب مالك بن أنس سماه الموطأ، وذهب في استنباط الأحكام  
الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبي حنيفة،  
وهو الكتاب الذي يقرؤه الرشيد ويحفظه في صدره<sup>(٢)</sup> تفضيلاً له على غيره  
من كتب الفقه . وعثرت أيضاً على كثير مما دونه العلماء فيما يُشتقُّ عن  
الفقه من علوم الأحكام، منها لأبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله، ومنها  
لابن شبرمة وابن أبي ليلى،<sup>(٣)</sup> وقد أفردا نظرها في علم الفرائض .  
ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسنت من آراء  
أصحاب المذاهب، وهو الكتاب الذي أصبو إلى مطالعته من بين هذه  
الصحف الشرعية، لأني وجدت قيلَ صاحبه من قوة الفطنة<sup>(٤)</sup> وصدق  
الحَدْس ما يؤكد لي أنه إن مدَّله في العمر فسيبهر الفقهاء .

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فإنها أكثر من أن  
يأخذها الاحصاء،<sup>(٥)</sup> غير أن الافادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار  
العلماء وبقى أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سُبِقوا إلى تدوينه،  
فكان أنفعَ للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم  
ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء .

(١) حاجي خليفة ٤ : ٤٥٧ (٢) الزرقاوى ١ : ٩ (٣) حاجي خليفة

٤ : ٣٩٣ (٤) ابن خلكان ١ : ٩٢ (٥) كتاب حاجي خليفة

## في تدوين اللغة

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وفتت عندها الناية في الإصلاح وتدقيق النظر، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطراراً إلى تفسير القرآن، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً<sup>(١)</sup> وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ في صدور الرجال، وكثيرها ضائع بين الرمال، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرُقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقاً من لغاتهم، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والاسناد.

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات<sup>(٢)</sup> وظلّ الناس يقرءون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثرت التصحيف لوجود الحروف المتشابهة،<sup>(٣)</sup> وما أستغرب أن يقرأ بعض الناس وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابي أصيب به من أساء والأصل أشاء، وهم أحسن أثاثاً وزياً والأصل ورثياً، والذين كفروا في غرة وشقاق والأصل في عزة إلى غير ذلك، فوكلَّ عبدُ الملك بن مروان إلى النَّضْر بنِ عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ومُحِيَ التصحيف في القراءة.

(١) المقد الفريد ٢: ٢٠٦ (٢) حاجي خليفة ٣: ١٥٤ (٣) ابن

وضبطُ اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدّمتُ لك في الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه <sup>(١)</sup> أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها من الاشتقاق إلا ما كان دخيلاً عليه من كلام الأعاجم فانه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى مجيئه ، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحُفّاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين والمأمون <sup>(٢)</sup> من أولاد الرشيد ، ومنهم سيديويه <sup>(٣)</sup> والفرّاء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا الفراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها ، <sup>(٤)</sup> وقد بلغتني جلالته في العلم ولكن لم يجمعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم <sup>(٥)</sup> ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع إلى كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد <sup>(٦)</sup> قبل تشرفي بتأديبه ، وقد أودعه كلام العرب وقبود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في

- 
- (١) هو أول قاموس كتب في اللغة العربية (٢) المسعودي ٢ : ٢١٣ والابشهي ٢ : ١٣ (٣) وقت أبو الفداء ٢ : ١٦ وفاة سيديويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال انه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور ، قال سيديويه فاذا هو وقال الكسائي فاذا هو اياها واتصر الخليفة للكسائي فعمل سيديويه من ذلك هما وترك العراق وسافر الى شيراز وتوفي هناك . (٤) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨ (٥) ذكر أبو الفداء أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة (٦) ابن خلكان ١ : ١٥٢

جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها في مواضعها من  
الكتابة، وأتى على متابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها  
أو نقص يبعدها عن الكناية

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين يزلون  
الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان  
العربي، <sup>(١)</sup> لأنى قد وجدت مبانة بين كلام العرب واصطلاحات  
المتصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك، فأما إذ  
انقسمت قسمين فيكون القسم البدوى هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان  
ينطق بها البلغاء والشعراء، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب  
يخالطها كلام السوق <sup>(٢)</sup> وألفاظ المعريين فيما ينقلونه من كلام الفرس  
واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية  
حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجد أسماءها في كتب الأعاجم، كما أن  
في لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب  
ثم انى وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتفاضوا عنه،  
وذلك أنهم عند ما يصرّفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن  
يشيروا إلى ما كانت تختلف فيه لغة قوم عن آخرين، ولقد ذكروا للأسد  
نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه

(١) يظهر هذا مما نقله الاصمعي وغيره من كلام العرب (٢) ذكر الأغانى

كلام السوق في زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ في غير موضع أما ابن خلدون فيقول في  
المقدمة ١٥ أن ملكة اللسان كانت محفوظة في الأمصار الى عهد الزمخشري وأمثاله من  
فرسان الكلام

بها عرب كذا وكذا، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم ما نحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يُشتقُّ منها من المعاني مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفّر وذلك من الأضداد التي لا أظن أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فإن الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير، وبمعنى الطّفّر في لغة قريش <sup>(١)</sup> . إلى غير ذلك <sup>(٢)</sup>

### الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قلّ القول أو أكثر، <sup>(٣)</sup> وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقران كما سمعت الأصمعيّ يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجد في شعراء هذا الزمان فانهم يعصبون أنفسهم على الانشاد بما يستميحون الملوك

(١) في القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير (٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيراً من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له تقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فرموا عن الشيء وتقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلاً لا ينحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضراً فإنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هي الألفاظ التي يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وإنما لكثيرة في كلام العرب (٣) الأغاني ٢٠: ٥١

من الأرفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال الأعراب . وامتزجت بهم الأعراب . وتجاؤوا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم في سوق مجنّة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز<sup>(١)</sup> فقدوا كثيراً من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيئاً لا يقدرّون عليه فيقولون البيت ويحكّونه أياماً<sup>(٢)</sup> وإنما سهل على المتقدمين الإجادّة في هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسب ومدح وهجاء من غير أن يكون نافية فيما سواه ثم ان كلام العرب<sup>(٣)</sup> كان سائراً في أيامهم على الألسنة فلم يمانوا إلى البلاغة تكلفاً<sup>(٤)</sup> فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يفرّدون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس في ملاذّ الشباب بحيث أتى في نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول .

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرّمي فأجمل  
أغرّك منى أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟  
وكجدّ عنتره بن شداد في الفروسية إذ أتى في الحماسة<sup>(٥)</sup> بما لم

(١) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذى القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيب للحج فيؤمن بعضهم بعضاً ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون إلى حضور الحج ثم يهجون (٢) الأغاني ٣ : ٢٥ (٣) الأغاني ٥ : ٢٥٢ (٤) الأغاني ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧ (٥) الأغاني ٣ : ١٨٨

يأت به أحد مثله كقوله .

لو سابتني المنايا وهي طالبةٌ قبضَ النفوسَ أتاني قبلها السَّبَقُ  
وكفتح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر السماحة  
والمكرمات في جميع شعره ويقول<sup>(١)</sup>  
أماوى إن المال غادٍ ورأحُ ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكرُ  
أماوى أن يصبح صدأى بقفره من الأرض لأماء لدى ولاخر  
ترى أن ما أنفقتُ لم يك ضائرى وأنَّ يدي مما بخلتُ به صفرُ  
وكانتفاع السموأل بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه  
أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسى طبقات الشعروهو  
الذى يقول

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يزيد به جميل  
تعيّرنا أنا قليلٌ عديداً فقلت لها إن الكرام قليل  
وما مات مناسيد حنفت أنفه ولا طُلَّ يوماً حيث كان قتيلاً  
وكانتقطاع أمية بن أبي الصلّت إلى العبادة بحيث إنه أتى في ذكر  
أحوال الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر<sup>(٢)</sup> وإن قوله  
يوشك من فرّ من منيته في بعض غرّاته يوافقها  
من لم يمت عبطةً يمت هرماً للموت كأس والمرء ذاتها  
لأحكم ماقاتته العرب في وصف الموت<sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك مما لا يتسع له  
المجال فنقف منه عند هذا الحد

(١) الاغانى ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ (٢) الاغانى ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المملقات السبع وهي أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونمت ضروب الوجدان التي تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالاً بين العشائر فان الحارث بن حلزة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها، <sup>(١)</sup> فيظهر من ذلك أنه كان لهم في الشعر سر ضاع عن المحدثين سره لا تقلا به فيهم من الطبيعة إلى الصناعة، لأن العرب كانوا شعراء جميعاً وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو مفاخرة، <sup>(٢)</sup> وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفه من أصحاب المملقات

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود  
قال هذا من كلام النبوة، <sup>(٣)</sup> ثم إن النساء كنَّ يقلن الشعر أيضاً في أيامهم حتى إن بعضهن قد فضلن كثيراً من الرجال مثل ليلي والخنساء وكتابهما شاعرة فصيحة، ولقد وجدت من كلام ليلي في وصف الشجاعة ضروباً من الابداع كقولها <sup>(٤)</sup>

مهفهف الكشح والسرِّبال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر  
لا يأمن الناسُ مُمساه ومُصبَّحه في كل فجٍ وان لم يفزُ ينتظر  
ووجدت في تأييد الخنساء لصخر توجماً كثيراً بالبكاء عليه حيث تقول  
يذكرني طلوعُ الشمسِ صخرًا وأذكره لكل مغيبِ شمس

(١) أبو عبيدة والإغانى ٩: ١٧٨ (٢) الإغانى ١٨: ٦٤ (٣) المقدم  
الفريد ٣: ١٢٢ (٤) الإغانى ١١: ١٧

ولولا كثرة الباكين حولي      على إخوانهم لقتلتُ نفسي  
وما يبكون مثل أخي ولكن      أعزى النفس عنه بالتأسي  
وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه

إذا القوم مدّوا بأيديهم      إلى المجد مدّ إليه يدا  
فقال الذي فوق أيديهم      من المجد ثم مضى مُصعدا  
وتقول وهو أفرخيت قالته العرب  
وإنَّ صخرًا لتأتم الهداة به      كأنه علّم في رأسه نار  
ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير<sup>(١)</sup> يرفعها إلى مسامحة البلغاء  
من الرجال

وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة،  
وهم يصفون الرُّكبان والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتمضية الرياح  
رسومها ومخاطبتهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأُنس ويصفون ألم  
الفراق ووحشة الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة في وقوفهم بالعبس على  
اطلال الديار<sup>(٢)</sup> إلى أن يتخلّصوا من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما

(١) الاغانى ٦: ٨٣ و ٩: ١٦٣ و ١٤: ١١٦ والعقد ٢: ٢٣ وديوان الحماسة

والأتلينى ٢٥

(٢) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب  
الربيع واستوقف الرفيق ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الطاعنين من ماء إلى الماء واتجاعهم  
الكلاء وتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسب وأبدى شدة الوجد  
والم صبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتصرف إليه الوجوه ويستدعى اصغاء  
الاسماع فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له وعقب بايجاب الحقوق ودخل

يأخذون به من المذاهب ، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلا الذين يتوسطون بالبلاغة في مطلعهم فيستمرون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلون علواً حسناً ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثل امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وهم المقدمون على جميع الشعراء ، وموضعهم من البلاغة واحد ،<sup>(١)</sup> إلا أنه غلب على ذى القروح التجميل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير العناية بتقويم الالفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر العرب ، الذين شرق شعرهم وغرب ؟ فقال « زهيرٌ إذا رغب ، والنابغة إذا رهب وامرؤ القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والأعشى إذا شرب ،<sup>(٢)</sup> ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسرٌ لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء في أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة في الفخر حيث يقول<sup>(٣)</sup>

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكتائب  
ولا إلى براعة زهير في المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام  
بقوله<sup>(٤)</sup> .

وإن يك من خير أتوه فانما      توارثه آباء آباؤهم قيل  
ولا إلى جمال الوصف الذي نظمه امرؤ القيس في معلقته نظم اللالي<sup>٥</sup>

في شعره وشكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعث في مدوحه الميل الى المكافأة وفضله على الاشياء وصغر في جنب قدره الجزيل وهزه إلى الفعل الجليل ، الحصرى ٢ : ٢٧٤ (١) الاغاني وكتاب الموازنة (٢) الاغاني (٣) خزنة الادب ٥١١ والاغاني ٩ : ١٥٨ (٤) الاغاني

في شذور الذهب فقد لا تحضر البلقاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذي ذهبَ مذهب المعجزات ، فان العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي معلقة في الكعبة إلى أن ظهر الاسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دونَ طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن الشعر موضعاً لا يتعدونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كما فراد أبي داود بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حجر بوصف الحمر إلى غير ذلك ،<sup>(١)</sup> وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي<sup>(٢)</sup> فان له أبياتاً حسناً ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالته العرب .

قالوا الطمان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل  
ولكني وجدته إذا تعالى في شعره كثيراً لم يؤمن وقوعه في الانحطاط ،<sup>(٣)</sup>  
وربما أتى من الألفاظ بالتقريب الذي يبعدهن الأذهان ، وهذا شيء يصح أن نعيه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجاً إلى السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

(٢) الأغانى ٩ : ١٤٠ .

(١) الأغانى ١٥ : ٩٠ و ٩٦ .

( ) الموازنة والأغانى .

## الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الاسلاميين المتقدمين علواً كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الأخوص وذى الرثمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وجريروالفرزدق والأخطل وجميل وكثير وكثير غيرهم ، فإن لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجده إلا في شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجفّاتُ العرُّ يلمعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما  
وكالاستئثار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه <sup>(١)</sup>

ترى الناس إن سرناسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا  
وكالتوجع في الرثاء في قصيدة الهذلي التي يجزع فيها على فقد أولاده إلا طفلاً  
صغيراً بقي له ومن جعلتها البيت المشهور <sup>(٢)</sup>

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تردُّ إلى قليل تقنع

وكالتشبيب في شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبي ربيعة <sup>(٣)</sup> بحيث إن لهم في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك لا ما يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

(١) العقد والأغاني والكشكول (٢) العقد والأغاني (٣) صاحب

الأغاني يفضله على شعراء زمانه وربما فضله في النسيب على شعراء الجاهلية

ثم إن الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيراً من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لابرار المعاني في فصيح كلام إلا أنه لا ينحط عنه في الأوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين ، والمذر لهم في ذلك أن شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ لیسمو كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة في عشائهم ، أما اليوم فإن اللسان الذي نزل به القرآن معروف لدى كل انسان فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الامصار كافة . وإنما وجب عليه أن يتدع المعاني التي لم يسبق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ، <sup>(١)</sup> لأن الألفاظ السوقية لا تمنع <sup>(٢)</sup> أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الاسلام <sup>(٣)</sup> إلى طبقات ثلاث أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم <sup>(٤)</sup> وهم جرير والفرزدق وهو من نبتة <sup>(٥)</sup> الشعراء والأخطل النصراني وهو المجيد في مدح الملوك <sup>(٦)</sup> ووصف الحمر ، وكان المقدم عليهم

(١) ذكر الاغانى ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ ( وذلك في زمن الرشيد ) (٢) الاغانى ٣ : ١٣٣ و ١٧٣ (٣) أى في المتصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ١٩ : ٦ (٥) الاغانى ٩ : ١٤٧ (٦) الاغانى ٩ : ١٤٧

جريزٌ وقد فضل الشعراء<sup>(١)</sup> بقوله في المديح .

ألستم خيرَ من ركب المطايا      وأندى العالمين بطونَ راح  
وقوله في النسب<sup>(٢)</sup> .

إن العيون التي في طرفها حور      قتلنا ثم لم يُحيينَ قتلانا  
يصرعن ذالالب حتى لا حراكَ به      وهن أضعفُ خلق الله إنساناً  
وهذا من الكلام الذي تنهى إليه رقة أهل الصباية ، ولم نجد من  
بعده مثله إلا في شعر جميل وكثيرٌ وقد استرسلنا في وصف حياة الشباب  
وانقطعنا إلى النسب<sup>(٣)</sup> من مذاهب الشعر ، يقول كثير<sup>(٤)</sup>

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنما      تُمثلُ لي ليلي بكل سبيل  
ويقول جميل

وما زلتُم يا بُتنُ حتى لو أني      من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا  
وما أحدث النأيُ المفرقُ بيننا      سلواً ولا طولُ الليالي تقاليا  
على أني راض بأن أحمل الهوى      وأخلصَ منه لا على ولا ليا  
ومن كلامه<sup>(٥)</sup>

خليلى فيما عشتما هل رأيتما      قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟  
وأول الأبيات قوله .

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلي      بُئنة أو أبدت لنا جانبَ البخل

(١) الاغانى ١٠ : ٢ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣  
والعقد الفريد ١ : ١٥١ (٢) الموازنة ٤ (٣) الاغانى ٤ : ٥٨ والكشكول  
والعقد الفريد ٣ : ١٧٢ (٤) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف  
(٥) الاغانى والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

يقولون مهلاً يا جميل وإني لأقسم ما بي عن بيئته من مهل  
والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسب إلا قول الأَحوص<sup>(١)</sup>

إذا قلت إني مشتفٍ بلقائها فحُمّ التلاقى بيننا زادني سقماً  
وأما الطبقة الثانية فأنها عصر أبي جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم  
لك ذكركم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من  
أن يأخذم الإحصاء ولكني لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومُسلم  
ابن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فإنه اتقطع في شعره إلى ذكر أحوال الآخرة<sup>(٢)</sup>  
وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في  
أحسن صورة . من ذلك قوائمه « روائح الجنة في الشباب » وهو قول يقبله  
القلب ولا يفسره اللسان،<sup>(٣)</sup> والناس يقولون إنه خرج عن العروض  
بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكني لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن  
يتناول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم  
الذي وضعه ولا سيما في بحر المتدارك ، فإن من العروضيين من زاد فيه  
على ما ذكر ،<sup>(٤)</sup> وقد كان أبو العتاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث لم  
يفارقه في حضر ولا في سفر ،<sup>(٥)</sup> ثم آل أمره إلى الزهد<sup>(٦)</sup> فليس الصوف  
وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول<sup>(٧)</sup> .

كان كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل

(١) الاغانى ٤ : ٥٧ (٢) الاغانى ١١ : ٣٢ (٣) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٤) المسعودى ٢ : ٢٦٥ (٥) الاغانى ١١ : ٣٢ (٦) الاغانى ١١ : ٣٢

(٧) الاغانى ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة<sup>(١)</sup> فيبكي الرشيد من ذلك فيهمُّ الجلَّاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا في عمي فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نُوَاس فإن مذهبه في الشعر مُضَادٌّ لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمن شعره الغزلُ والزهو وذكر المنادمة والحمر تبعاً لما نعرفُ له من مِمَازِحَةِ الملوِكِ ،<sup>(٢)</sup> فهو يذُكُرُ إبليس والحمر في شعره كما يذُكُرُ أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفاتحة قوله

بَسَمِ الصَّبَاحِ لِأَعْيُنِ النَّدْمَاءِ      وَانْشَقَّ جَيْبَ غِلَالَةِ الظُّلْمَاءِ

وله في صفاتها ونعت طعمها ويريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاعتباق<sup>(٣)</sup> ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره في الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندي شاعر الشعراء حقيقة ،<sup>(٤)</sup> وإني أفضل شعره على شعر أبي العتاهية لأن قصائده كلها سالمة من العيب ،<sup>(٥)</sup> أما أبو العتاهية فإنه وإن كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ،<sup>(٦)</sup> وقد ذكر لي ورَّاقٌ في درب القراطيس<sup>(٧)</sup> كنت آلفُ حانوته أنه مرَّ به أبو العتاهية يوماً وعنده ديوان

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والطرطوشى ١٧ والكشكول

(٢) الاتلیدی وحبلة الكمیت وتزيين الاسواق (٣) المسعودی ٢ : ٤٢٢

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقاتي من المجلد الثالث أن أبا نواس من

أقدر الناس على الشعر وأطعمهم فيه (٥) القيرواني وابن خلكان (٦) الأغاني

٣ : ١٨٠ (٧) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

لأبي نواس فوق نظره على هذا البيت<sup>(١)</sup>  
ان ترجع الأنفسُ عن غيِّها ما لم يكن منها لها زاجر  
فسألني لمن البيت فقلت لأبي نواس فقال والله إني أحب أن يكون  
له هذا البيت بنصف شعري،<sup>(٢)</sup> وأظن أنه لو وقف على قوله .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد<sup>(٣)</sup>  
أو قوله وهو أمدح بيت للمحدثين  
وكلت بالدهر عيناً غير غافلة بجودك فكفك تأسوك لـ ماجراً

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نونخت في مجالس البرامكة  
وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول  
إن الأصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف  
أن يقال فيه من أبي نواس ، لأنني ما رأيت في أهل الأدب من هو أوسع  
علماً في كل شيء منه وليس له في الشعراء من مَبَار ، يملق له بفبار . وكفى  
في تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون<sup>(٤)</sup> فإن الشعر رسخت في  
صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن  
الوليد الملقب بصريع الغواني فإنه أرق الشعراء غزلاً وألطفهم صنماً وأكثرهم  
من المعاني حظاً<sup>(٥)</sup> إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مديحهم هو

(١) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت في الامثال السائرة وأبدل بالشرط  
الثاني قوله « حتى يرى منها لها واعظ ، (٢) الطرطوشي ١٠  
(٣) لاغانى واليتمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠ (٤) ابن خلكان  
(٥) ذكر له ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال انها حسنة  
جداً وذكر الحصرى أيضاً جملة أبيات وقال ان الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس  
وان مسلماً أول من لطف البديع . وكسا المعاني حلال اللفظ الرفيع

الذي جعله مقصياً عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل في نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاعه ورضعه بدرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إليه يا مسلم أنت القائل .  
 أنس الهوى يبنى عليّ في الحشا وأراه يطمح عن بني العباس فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحاً عاهُ يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول .

أنس الهوى يبنى العمومة في الحشا مستوحشاً من سائر الأبناس وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بني العباس فعجب الرشيد من سرعة بديته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين فإنه من أشعر الناس<sup>(١)</sup> وامتحنه فسترى منه عجباً فرق له الرشيد وفي نفسه من الميل الى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعريت لك ، فقال يا أمير المؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فاني لم أدخل على خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الانشاد وكما فرغ من قصيدة قال له التي تقول فيها « الوحل » فاني رويتها وأنا صغير ، فأشده شعره الذي أوله .

أديرا علىّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلي ذحلي<sup>(٢)</sup>  
 حتى إذا انتهى إلى قوله .

(١) كان مسلم ابن الوليد من أشعر الناس ولكني لم أر له ترجمة في الأغاني ولا في ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ (٢) في المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات آخر من هذه القصيدة

إذا ما علت منا ذؤابةً شارب تمشت بنا مشى المقيد في الوحل  
ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى في  
الوحل ؟ ثم أمر له بجائزة وخلق سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان  
الثلاثة المقدم ذكرهم في الفصل السابق زينون زمن الجاهلية ولقد لقيت  
في بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العُماني وأبي مُصعب وأبي الشيص  
وأبي عبد الرحمن العطوي وغيرهم ، واتصلت في أخبار جماعة ممن يتصرفون  
في فنون الشعر ويتدعون القول الذي لم يشرّكهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا  
القصائد التي ليس في آياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا في أيام  
أبي نُوَاس ومسلم بن الوليد فضع بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر في  
مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

### الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى في بعض كتبي السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى  
بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم  
أربعة نفر<sup>(١)</sup> ابن سُرَيْج وابن مُحَرَّز وهما مكيان ومالك ومعبّد وهما مدنيان ،  
اذ كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً  
وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليامة ، وهذه  
البلاد مجامع أسواق العرب ،<sup>(٢)</sup> وكانت النساء يشاركنهم في صناعة  
الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزة الميلاء في الغناء الموقّع إلى أن صارت أحسن

(١) الأغاني ١ : ٩٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

الناس ضرباً بعود،<sup>(١)</sup> وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فاحتدت فيها في تنسيق الأنغام، ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنياً بالفارسية، فأخذت عزة عنهما نفماً وألفت عليها ألحاناً كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء،<sup>(٢)</sup> ثم ظهر طوئيس المنفى فصنع الرَّمَل والهزَج<sup>(٣)</sup> وأول ما غنى به على لحن صنعه قوله<sup>(٤)</sup>

قد براني الشوق حتى كدت من وجدى أذوب  
ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي<sup>(٥)</sup> وشهره بين الناس، وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديمة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عن الأذان،<sup>(٦)</sup> فلما نقلوه عن قومنا واستمعناوا بكتاب لبطليموس في اللحن الثمانية<sup>(٧)</sup> عربوه في خلافة أبي جعفر<sup>(٨)</sup> أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء وبنغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران . الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كافراد معبد بالثقيل،<sup>(٩)</sup> وابن

(١) الأغاني ١٦ : ١٣ (٢) الأغاني ٥ : ٥٧ (٣) الأغاني ٤ : ٣٨

(٤) الأغاني ٤ : ٣٧ (٥) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧

(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧١ (٧) الأغاني ١٩٥ (٨) ابن نباتة

(٩) الأغاني ٦ : ٦٦

سريح بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج<sup>(١)</sup> وأحمد النَّصِيبِيَّ بِالانصَابِ<sup>(٢)</sup> وفليح  
ابن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والمَوْصِلِيَّ باللحن الماخورى ، أما خفيف  
الرمل فانهم يشتركون فيه جميعاً بحيث لم أجد مغنياً إذا تغنى لنفسه يكاد  
يعنى إلا خفيف الرمل ،<sup>(٣)</sup> والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن  
الأمرء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو  
يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يُخْرِجُ بَدْرَ الدنانير لأجازه المحسنين<sup>(٤)</sup> منهم لم  
ولقد سئل حُتَيْنُ المَغْنَى وقد دُعِيَ إلى مَأْدُبَةٍ لا يعهد في صاحبها السباحة ،  
لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ،  
أقتلومونى أن أغلى بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبوبون للعلم ومقربون  
اليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم المَوْصِلِيَّ وابنه  
اسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه  
من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن الماخورى  
الذى لم يشر-كه فيه أحد من المغنين ، وكان يظنُّ لصعوبة المأخذ في ابتداعه  
أن إبليس هو الذى ألقاه عليه فى المنام ، فلقد طالما تهوَّس بالغناء وأمعن  
فى تنسيق الألحان على أتم ابداع وأحسنه موقعاً فى النفوس حتى توهم أن  
الأرواح هى التى كانت تُظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجز عنها غيرُه  
من الأنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء

(١) الأغانى ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣

(٢) الأغانى ٥ : ١٦١

(٣) الأغانى ١٤ : ٥٥

(٤) الأغانى ٧ : ٣٦

ما لإبراهيم في العلم بهذا الشأن ثانی  
إنما عمر أبي اسحق زین للزمان  
جنة الدنيا أبو اسحق في كل مكان  
منه يُحَيِّ ثمرُ اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه اسحق وقد وضع ألحاناً لا يقدر شيمان  
متملى ولا سقاء يحمل قرينة على الترم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكى  
أن يترنم به إلا قعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ،<sup>(١)</sup> لأنه سما في  
اقتداره على الغناء إلى أن يجعل في نفس السامع تحركاً لما يُغنى بمغناه من  
الأشعار ، فيحملها على الكبر في معرض المديح ، وعلى الحماسة والاعجاب في  
مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة في استرسال الهوى ، وعلى البكاء  
والنصبة في موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلاً عن إجادته في ضرب  
العود ، ولقد كنت يوماً بدار الرشيد وفي مجلسه عشر جوار يضربن على  
الميدان فوق خلل في مجرى إصبع على بعض الأوتار ففرغه من بين أريهين  
وتراً<sup>(٢)</sup> تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن  
أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أجيالاً طوالاً يستعملونها  
ويعارسون طرائقها .

(١) الاغاني ٣ : ٧٩ (٢) الاغاني ١ : ٢٠٠ وفي المصري ٢ : ٢٠٦ قال

اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذي يوافق هواه  
ويطابق مغناه

وقد كتب إسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنعامه وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه سواه<sup>(١)</sup> حتى لقد خطأ يحيى المكي فيما دون من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات الى من ابتدعها من المغنين<sup>(٢)</sup> إلا أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبتها إلى أصحابها فضلاً أعظم من فضل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخطئه في رواياته،<sup>(٣)</sup> لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحق وينظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرّ في موضعه من الكتاب.

ومن حذق إسحق في صناعة الأنعام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبس من تقسيمات أفليديس<sup>(٤)</sup> وما هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه، فقد ميز<sup>(٥)</sup> أجناس الغناء كله، وجعل الثقيل الأول أصنافاً، فبدأ فيه باطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً، وذلك بخلاف الذين دونوا

(١) الاغاني ٦: ١٨ (٢) الاغاني ٥ و ٦ (٣) الاغاني ٦: ١٧

(٤) الاغاني ١٥: ٨ (٥) الاغاني ٥: ٥٢

الفناء قبله وبعده فانهم أضاعوا صناعة الفناء القديم إلا أحمد بن يحيى المكي  
المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونسبها يقال له المجرّد، <sup>(١)</sup> فانه أصل  
يرجع اليه ويعول عليه، ولست أعرف كتاباً بعد كتاب إسحق يقارب  
كتابه أو يقاس به، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير  
أصوات المتقدمين، ورجع إلى الفناء القديم الذي سبق إلى التعصب له فمن  
يقال له «سيّاط» وفد على المهديّ رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان  
فلم أوفق إلى الاجتماع به، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من  
هذه الصناعة <sup>(٢)</sup> أن إبراهيم وإسحق تلميذاه <sup>(٣)</sup> وإليهما انتهى في  
إجادة الفناء.

## لُمةٌ في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت  
مجهولة عندهم في صدر الإسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من  
الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم <sup>(٤)</sup>  
حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالأديار، أما اليوم فانا نجد  
في سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب  
البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم، وإنما همهم ارتياد المسارح  
والمزرع لحيواناتهم كما سبق الالمام إليه في صدر الكتاب.  
وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة <sup>(٥)</sup> رياضية ومنطقية

(١) الأغاني ١٥ : ٦٥ (٢) الأغاني ٦ : ٦٥ (٣) الأغاني ٦ : ٩

(٤) المقدمة ٤١٩ (٥) حاجي خليفة : ٤٦٢

وطبيعية وإلهية . فأما العلوم الرياضية وهي النجامة والمدد والهندسة والفناء فانهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن المتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم في الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصاها ، كما أنك رأيت في الكلام على الفناء أن لبراهيم وابنه اسحق فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم ( أرشدك الله ) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قبيل المفروض المعلوم <sup>(١)</sup> إلا موضعهم من النجامة والفناء في تحريرها وإصلاحها والاعتبار في الأقسام التي تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التي لا غاية بمدتها في الإصلاح .

أما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذي أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ، <sup>(٢)</sup> وقد عُرِّبت رسائلهما في خلافة أبي جعفر ثم أعيد ترميها في هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل <sup>(٣)</sup> جعل مقالات اقليدس في جلد كبير سماه كتاب الأركان ، <sup>(٤)</sup> وفيه خمس عشرة مقالة يبحث في الأربعة الأول عن السطوح ، وفي الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفي السابعة إلى التاسعة عن العدد ،

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) ابن نباتة (٣) هو مهندس ذكره الاغانى

(٥) المقدمة ٤٢٤

وفي العاشرة عن المنطقات، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور، وفي المقالات الخمس الباقية بحث واسع في المجسمات، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيها بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر وأسباب الحركات، وألحقوا به أيضاً علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس<sup>(١)</sup> من اليونان أيضاً فعرفوا ما يقع من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء<sup>(٢)</sup> بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك<sup>(٣)</sup> فإن اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم في العلوم الرياضية، لأن طبائهم ما تهيات للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة، وإن كان شعر الجاهلية جافياً لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الابل والوحش والمنازل الخالية<sup>(٤)</sup> فإن شعر المتصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعراً أرق من النسيم<sup>(٥)</sup> وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذاهب إلى الغرب

(١) المقدمة ٣٥٩ (٢) المقدمة ٣٥٨ (٣) حاجي خليفة ٤ : ٤٦١

(٤) الكشكول والالغاني (٥) راجع كتاب المقرئ وغيره من تواريخ الاندلس

ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفح فيها الطيب على غصن  
أندلسها الرطيب فيقول<sup>(١)</sup>

وإذا ماهبت الريح صَبًا صحت واشوقى إلى الأندلس  
وديار الأعراب قفر وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما  
لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجد في شعر الأندلسيين .  
أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب في المنطقيات  
لأرسطو الحكيم<sup>(٢)</sup> عُرِّبَتْ في خلافة أبي جعفر<sup>(٣)</sup> بمنظرة عبد المسيح  
الحِمْصِي وهو من أشهر النُقَلَة بعد سلام الأبرش<sup>(٤)</sup> وقد اشتملت على  
رسائل ثمان ، أربع منها في صورة القياس وأربع<sup>(٥)</sup> في مادته ،<sup>(٥)</sup> وربما زادوا  
فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من  
كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن  
العلم إلا ابن العلاف<sup>(٦)</sup> خطيبَ هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها  
بذكر سحبان وقُس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في  
الجاهلية والاسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأدباء في الخطابة  
ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ واكثر المعاني في قليل من الكلام

(١) المقرئ (٢) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص ويشتمل  
على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات  
وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسة  
وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم أن حكما اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت  
رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص  
بها فصارت تسعاً . المقدمة ٤٢٩ (٣) المسعودي ٤ : ٤٠٠ (٤) حاجي  
خليفة ٣ : ٩٧ (٥) المقدمة ٤٢٨ (٦) ذكره ابن خلكان ٩٢

وأما العلوم الطبيعية وهى علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم  
وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان  
مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها فى جميع ما لم يكونوا يعرفونه  
من العلوم قبل أبى جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة  
المعادن فى علم الكيمياء وهو النظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة  
بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن  
والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض وغير ذلك (١)  
وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة عما فى منبر عايتها  
وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى  
إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون فى استخراج المركبات ومزجها على غير  
ترفع عنها . فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموى قد شغل نفسه يطلب  
الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره (٢) وهذا جعفر  
الصادق أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك  
أكثر من خمسمائة رسالة فى علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن  
حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار  
فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام بجابر بن حيان الطرسوسى وهو  
تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب سفر أجليلا فى علل المعادن (٣)  
ودون الكيمياء فى سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ويزد من مذاهب  
المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق فى مجرباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين

(١) الاغانى ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ٤٤٣ (٤) ابن خلكان ٥٠٦ : ١٤٦٧

(٣) حاجى خليفه ٤ : ٢٤٦

منها القوة النفسية وهي السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشرَ كنه فيه أحد ولا قدّر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر<sup>(١)</sup> أما الذين اشتغلوا فيها بمدته فقد قصّروا دون الغاية التي بلغها منها ، وربما أكبّ عليها جماعة بما طمِعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازة ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن<sup>(٢)</sup> في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم في علوم الدين كما رأيت وفي علم الكلام الذي وضعوه تحفظاً<sup>(٣)</sup> من العلوم الحكيمة إذ كانت تخالف الشرع الشريف<sup>(٤)</sup> ، وقد رأيت لهم كتباً في السياسة المدنيّة<sup>(٥)</sup> يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التأليف التي فيها رأى ونصيحة ،

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلكان

٦٨٧:١ (٤) حاجي خليفة ٣: ١٠٠ (٥) ذكر هذا ابن خلدون في المقدمة

٣٢ وابن خلكان ٢: ١١٢ و ١١٤

أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مُزجاة لأنهم لم يُعِنُوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره في نفوسهم من الفائدة وفي معاشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولي المؤمنين لارب غيره ولا معين سواه

### أدب السير والحكايات

نُفِرد هذا الباب لذكر الحكايات والقِصص فإنها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة<sup>(١)</sup> والذي كان قائماً بديوان الانشاء في خلافة أبي جعفر ،<sup>(٢)</sup> له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة<sup>(٣)</sup> ومقالات في البلاغة تُشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا، وهم دونه في العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه ،<sup>(٤)</sup> لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له كليلة ودمنة<sup>(٥)</sup> وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم

(١) العقد الفريد في باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩

(٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الأغانى ٨ : ٧٦

(٥) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله بن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها الى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتباً كثيرة

والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجرأة والجن والتيقظ والذهول والعقل والحق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأدبيّ ، فأما السياسيّ فانه داع إلى العدل وزاجر عن البغي ، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديريهم لأموار ممالكهم وما يجب عليهم من العدل عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأنّ الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يُقرب إليه أهل النيمة والفساد . وأما الأدبيّ ففي بيان المعاش في ظروفها وأوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يُعدّ كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إنّ كسرى أنوشروان أنفذ طيبيه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم<sup>(١)</sup>

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلًا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارعه به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « يبدأ » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة

(١) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وغفرة » يعارض به كتاب كيلة ودمنة وأنه كان ظريفاً عالماً حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضاً بها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

فأحدها ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة في صورته فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة ،<sup>(١)</sup> وعهدى بجميع الكتب الأعمجية إذا عُرِّبْتُ عُرِّبْتُ إلا هذا الكتاب فاني رأيت في العربية أفصح منه في الفارسية ، وقد كان صيدية البرامكة ( حفظهم الله ) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد<sup>(٢)</sup> ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم

(١) المقدمة ٢٥٧ (٢) ذكر في العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه يقول : أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح كاتب حاسب أديب لبيب ناصح زائد على النصح شاعر مفلق أخف من الر يش إذا ما يكون تحت الجناح لى فى النحو فطنة ونفاذ أنا فيه قلادة لوشاح لورى بنى الأمير أصلحه الله رماحاً صدمت حد الرماح ثم أروى عن ابن سيرين فى الفقه بقول منور الاضاح لست بالضخم فى روائى ولا الفدم ولا بالمجمد الدحداح ؟ لحية كثرة وأنف طويل واتقاد كشملة المصباح وكثير الحديث من ملح الناصير بصير بخافيات ملاح لم وكم قد خبات عندى حديثاً هو عند الأمير كالتفاح أمن الناس طائراً يوم صيد فى غدو أو بكرة أو رواج

استظهاره ، يقول في مطلع ذلك الكتاب <sup>(١)</sup> .

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يُدعى كليله دمنه  
فيه احتمالات وفيه رُشدٌ وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاء يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاء الفضلُ  
نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة  
التي ورثها عن أبيه . فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا  
أحكام البلاغة وفكوا رقاب الشعر ، <sup>(٢)</sup> وكان نغراً للمسلمين بما آتاه الله تعالى  
من البلاغة التي جمعت سحر البيان ، وأخذت بجماع الجنان ، يقال إنه لما  
ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً في دولة الأمويين قال  
لمروان سأصدر عنك كتاباً إلى أبي مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من  
الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبي مسلم  
(رحمه الله) وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على  
طيّبه فانما فيه سحر غالب » على أني لو سئلت التفضيل بين هذين  
الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب  
وتُتَحَف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره  
من كتب السّير والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس <sup>(٣)</sup>

أعلم الناس بالجوارح والصيد وبالخرد الحسان الملاح  
كل هذا جمعت والحمد لله على اني ظريف المزاح

(١) الاغانى ٢٠ : ٧٣ (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه  
أول من أطال الرسائل واستعمل التحييدات في فصول الكتب واستعمل الناس  
ذلك بعده . (٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الأمثال التي توسع العقول  
أدباً مع فكاهة وترويض أفكار، وترجموا عن الفارسية كتاب هزّار أفسان  
وسمّوه ألف ليلة وليلة،<sup>(١)</sup> ومعنى هزّار أفسان ألف خرافة، وكان السبب  
في وضعه كما هو معروف أنّ ملكاً من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة  
قتلها بعد يوم غيرّة عليها من الرجال، فتزوج بجمارية من بنات الملوك  
ممن لمن عقل ودراية يقال لها شهر زاد وفي بعض النسخ شيرزاد،  
فلما اتصلت به أخذت تحدّثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل  
بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى  
أن أتى عليها ألف ليلة وليلة، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه،  
ووقفته على حيلتها عليه. وكان للملك قهرمائة يقال لها رسازاد أو دینارزاد<sup>(٢)</sup>  
كانت موافقة لها على ذلك، وفي هذا الكتاب دون المائتي سمر لأن  
كل سمر كان يُحدّث به في ليال عدّة، وهي من أطرف الحكايات التي  
وضعتها الفرس في غابر الدهر.

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النساخ والكتاب وأضافوا إليه  
حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يمهّد فيهم من طول الباطل  
في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم  
تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأنس وقصص العفاريت  
والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عريية  
لا يخالطها من كلام الفرس الا القليل، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق  
تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع بركة مأخذه في تجميلها

(١) المسعودي ١: ٢٩٦ (٢) كتاب الفهرست

وروتها ، كالذى زعموا أن صياداً ألقى شبكته فى البحر وظل نهاره طولَه لم يظفرَ بِسَمَكَةٍ ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضائق به الحيل جرَّ الشبْكَ فاذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيب بئس منه عن نصبه فى ذلك اليوم ، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيها قُمَّمًا من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض ختامه فصعد منه دخان خيم على السماء ، فنظر فى الدخان فاذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضح منه جان من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يتبض النفس هيبة وفرقاً بحيث لا يتنبه السامع الى أن هناك خرافة ، فاذا أنتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال يمد أن خامره الروع وأفرغه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، والتمس فى نفسه مثلاً لهذا المسكين فوجده كثيراً فى الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرّاً يريد الكاتب من وراء الفكاهة

وإجماع الرأى على أن ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنماً ، فإن فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معاش الناس وأخلاقهم وما يتقبلون فيه من الأحوال التى توسعوا فى وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة ، جميل العائدة . فأما الحكايات التى ذكروا وقوعها فى الإسلام فلا تبعد عن الأحوال التى تحدث بينغداد فى أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك ، مثل حكاية الخليفة الثانى وحكاية الخليفة والصيد إلى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن

الرشيد وجعفر، أمّا ما ذكروه عن تطوافهما<sup>(١)</sup> مع مسرور ليلاً في الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع، وقد ذكرت مثله في رسائلي السالفة إليك غير أني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلها لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة.

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خلق من العوام على تصديقها لا تقطع أخبار الأمم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غشها من سميتها، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس<sup>(٢)</sup> أو بالعراق بلداً صار غديراً ثم انقلب ماؤه إلى عمارة وأساكته إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع، وإنما نقل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان المعجائب فأوسموا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة.

ومن أظرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء. وغانية هيفاء. وشاعرة فصيحة

(١) الاتليدي ١٢٦ والأغانى ٦: ١٣٧ وغيرهم (٢) المسعودى وذكرها

ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين

وعجوز ذات دهاء ، وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هئاتهم في التلاق ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل ، كالذي يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كلُّ من فيها نساء وتجارها نساء وجندُها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى ينهن أياماً من النعيم أقلُّ ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية خرجت له من الاصداف صبيّة من بنات الجنان ، كأنها حورية من حور الجنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلالي من حكاياتهم أيضاً حكاية السندباد<sup>(١)</sup> وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعاً في طلب المال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الاخطار لتليل الملا والفقار ، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد . وعلى بعض السنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجبية

(١) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئاً والثاني في صحيفة ٣٨ وقال انه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلاثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

عنها . وهذا كلام فيه بُعدٌ عندي ، لأنني طالما سمعت رواتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفي مطلع الحكاية أن الحمال اشتد به الحر فحط حمله على باب . التاجر في ظل يتردد اليه النسيم الرطيب ، وتقوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عِزَّة ذلك التاجر في كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القماری والشحاري في جناه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لا تقطاع أمله منه وهو بمكانه من التبع وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عبس الرخاء والنعمى ، وعبس الشظف والبلوى .

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار ، وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عزَّ علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحدٍ من الرجال ، وإلا فإن في وصف الحروب من ذكر الكرك والفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه في ساحات القتال ، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولولم يكن هذا الاستدلال صحيحاً لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلاً واضحاً على اشتراك الأدباء في تأليفه ، لأننا نجد فيهم من يسترسل في المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الامكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف يقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدّه إلى ذكر المبالغة التي بمدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار

للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقبلون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدياء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوى التي تفانوا لأجلها في طلب الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصدوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هي ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات

## تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء فرغانة ،<sup>(١)</sup> فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالاً شاهدها وعادات جرواً على سبيلها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا في استخراجها للأحكام .

(١) يستدل على ذلك بما دونته رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سموه . فن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أن في بعض الأمم رجالا عراضَ الوجوه سودَ الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار، <sup>(١)</sup> وفي جلودهم نُقَطُ حمر وصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كراس الكلب ، ومن جسمه كجسم الثور أو الأسد ، <sup>(٢)</sup> ولقد سمعت من يحدث أن من البلغار من طولُه أكثر من ثلاثين ذراعاً يأخذ الفرس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر يده ساقه كما تقطع باقة البقل <sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك . واستأظن هذه الأساطير التي يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التي خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل الأعصر الخالية فحدثوا بها رجماً بالغيب ، أو تحصيلاً لليقين من الريب . فلنا منهم ان أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصاً عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس ، وتناقلها الندماء والجلساء ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوه على تمادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظاً في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من

(١) ابن خردادبة ٦٣ (٢) القرمانى ٥ : ٥٤ (٣) المستطرف ٢ : ١٦٢

أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى ، وهذا في حرب البسوس إلى غير ذلك <sup>(١)</sup> وأما الحوادث التي وقعت في الاسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلف والاختلاف والمخالفة أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظته فيهم العصبية <sup>(٢)</sup> حتى اتصت أنساب أشرفهم إلى أولاد ابراهيم (عليه السلام) مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات .

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن اسحق <sup>(٣)</sup> في كتابه عن المغازي والسير وأخبار المبتدأ ، <sup>(٤)</sup> ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفا ، <sup>(٥)</sup> ثم أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التي سمرت نارها على عمال الروم ، إلا أني رأيت يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين وإلى حصن كذا وكذا وكذا رجلا وإلى البلد الفلاني كذا خلقا عظيما مما لو جمع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة

(١) راجع كتاب الأغاني (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣ و ذكر أبو الفداء وابن الأثير انه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠ (٥) المسعودي ٢ : ٤٠١

النقل ، وكذلك أكتاره في عدد القتلى من الروم كأن يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله في جميع ما لهم من البلدان ، وربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دوّن التاريخَ بعده حمّاد الراويةُ وعبد الله الأَصمعيُّ وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويُمليانها عن ظهر قلبهما إلا أن الخلل في رواية حماد أنه يقول الشعر على لسان المتقدمين <sup>(١)</sup> فيما يروم إسناده اليهم من نكتة أو من خبر ، فهو إلى المؤاخذة بما يُدخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الثناء على ما يرضه من الشعر الذي لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات <sup>(٢)</sup> . وأما الأَصمعيُّ فليس ثمة من الأمور التي تنتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسمها حتى يكون فيها بعض المرية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقلَ بمدوناتِه ، وهذا لا ينقص فضله في العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل .

ثم إنى وحدت الأَصمعيَّ وحمادا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبأهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعاً عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى

لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم<sup>(١)</sup> كما يقولون ، وأما القصور  
فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبادئها وغايتها ولا أن  
ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايهم فيما سقطت  
به دولهم بعد أن تسلّموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون في  
انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم  
الأدبية ببيان المحامد التي يُستَرشد بها والمساوى التي ينبغى الاستنكاف  
منها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم  
بالفضل الجزيل فيما تمهروا في استخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر  
بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ،<sup>(٢)</sup> إذ كان لهم غير  
من ذكرنا من العلماء كثير من النقّاشين والمصوِّرين والصناع مما يدل على  
أن لهم صوراً على الورق الصقيل<sup>(٣)</sup> تظهر خارجه وليست بخارجة ، وداخلة  
وليست بداخلة وفيها كل غريبة من الأبداع ، ورأيت من رسومهم على  
الآنية والأعمدة والقباب ما يبهّر البشر في إحكام الصناعة مع الحلاوة وتمام  
الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد  
وملوكنا البرامكة ( أعزهم الله ) وقد سُمّي بالعروس<sup>(٤)</sup> لخصبه ونضارته  
وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الاسلامية . ولمرى أن فيما  
ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهداً ناطقاً يبلوغ النفاية من

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون  
وكتاب حاجي خليفة (٣) كلية ودمنه (٤) المسعودي ٢ : ٤٠١ والشرقاوى  
١٢٢ وفي الحصرى ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الأزمنة

العمران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .  
وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين  
بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ( صلى الله عليه وسلم ) والله نَسألُ أن  
يُجَمِّلَ حالنا بالسِّرِّ الجميل ، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، لا ربَّ سِوَاهُ .

## الرسالة الثامنة

### رسالتي إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبي إليك أفردته لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرَنْجِية ، وأنا  
أكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان  
الرشيد يومَ وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة<sup>(١)</sup> قد استدعاني إليه فأصنفته  
في مجلسه متنقلاً كأنه يريد أمراً عظيماً ، فاستدناني<sup>(٢)</sup> إليه وقال إنا أتانا  
من ملك الفرَنْجِية رسولٌ يُقرئنا منه السلامَ ويلتمس جميل رعايتنا بمن  
يُحجُّ إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف نروم منه  
أن يتقبلها في سبيل المودَّة لغاية نرغب فيها إليه هي التمسُّب على بني أمية  
الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ،<sup>(٣)</sup> فإذا وافقنا على

(١) هذه اللفظة لقب زومي للقياصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت  
في ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظه انبرور بحذف الذال وهي تشبه أن تكون منقولة عن  
الفرنساوية (٢) في الأغاني ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدني من يحبه (٣) راجع  
المقرئ وابن الاثير تجد كلاماً مطولاً في هذه الحروب